في
التنوير الإسلامي
«٤٧»

السُّنَّة النبويَّة
والمعرفة الإنسانيَّة

تأليف
د/ محمد عمارة

نهضة مصر

في التنوير الإسلامي ٤٧

السنة النبوية
والمعرفة الإنسانية

تأليف
د. محمد عمارة

نهضة مصر

اسم الكتاب	السنة النبوية والمعرفة الإنسانية
اسم المؤلف	د . محمد عمارة
اشراف عام	داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر	مايو ٢٠٠٠
رقم الإيداع	٧٧٠٧ / ٢٠٠٠ م .
الترقيم الدولي	I . S . B . N 977 - 14 - 1283 - 3
الناشر	نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي	٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة . مدينة السادس من أكتوبر . ت: ٣٣٠٢٨٧ / ١١ - ١٠ (١٠ خطوط) فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .
مركز التوزيع	١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥/٠٢ . فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥/٠٢ ص ب: ٩٦ الفجالة .
إدارة النشر	٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة ت: ٣٤٦٦٤٣١ - ٣٤٧٢٨٦٥/٠٢ . فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦/٠٢ ص ب: ٢٠ إمبابة .

تمهيد

على مر تاريخ الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية ، نهضت السنة النبوية بدور المصدر الثاني من مصادر التشريع ، إذ المصدر الأول هو القرآن الكريم . . . وبهذا الاعتبار ، حظيت السنة باهتمامات فكرية وخدمات علمية ، يسرت للأمة الاستفادة منها في هذا الميدان . . ميدان التشريع ، والفقه ، والقانون . .

كذلك ، حظيت السنة النبوية بجهود علمية متميزة ، وربما غير مسبوقة في الفكر الديني والحضاري لدى الأمم الأخرى ، ميادين التوثيق . . والإسناد . . والرواية . . والجرح والتعديل للرجال الذين رووها ودونوها . . حتى ليمكن للحضارة الإسلامية أن تفاخر بالمناهج والتطبيقات التي تبلورت علماً شامخاً في توثيق النصوص والمأثورات والمرويات . . وهو علم يمكن أن يتعدى حدود السنة إلى ميدان التاريخ . . .

وإلى حد ما ، حظيت السنة النبوية بجهود علمية في ميدان «الدراية» والكشف عن علل المتن ومقارنة المرويات . . وخاصة في عرض الأحاديث على محكم القرآن الكريم . . وهي جهود تحتاج المزيد من المتابعات والإضافات . .

لكن هناك ميادين في علوم السنة النبوية ، تحتاج إلى ريادات بحثية لأنها لا تزال بكراً حتى الآن . . ومنها الكشف عن ما في

السنة النبوية من مصادر للمعرفة الإنسانية ، وخاصة في ميدان السنن والقوانين الإلهية - سنن وقوانين المجتمع الديني . . والتقدم والتراجع . . والتجديد والجمود . . والنهوض والانحطاط . . فإسلامية المعرفة الاجتماعية والإنسانية تستلزم النظر إلى السنة النبوية بهذا الاعتبار ، وبقدر ما تتزايد حاجات أمتنا إلى فقه النهضة ، وإلى سنن الإقلاع الحضاري . . بقدر ما تتزايد حاجات العقل المسلم كي يدرك ما في السُّنَّة النبوية من كنوز في هذه الميادين .

ولعل هذه الصفحات - التي تتناول طرفاً من مكانة السنة النبوية في المعرفة الإنسانية - أن تكون إضافة متواضعة لجهود جديدة - محدودة . . وأن تغري بالبحث الجاد والعميق في هذه الميادين . .

* * *

في مناهج الفكر ، السائدة والمؤثرة في الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة ، بشقيها الليبرالي والشمولي ، وبسبب من النزعة المادية في دراسة الواقع والتاريخ وتفسيرهما ، كانت السيادة للمناهج الوضعية التجريبية أكثر من غيرها ، بل ودون غيرها في أغلب الميادين ...

فالإنسان بنظر هذه الحضارة هو الإنسان الدنيوي ، إنسان عالم الشهادة .. إنسان « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .. وحتى عندما يتدين فإن تدينه يقف عند الطقوس ، فلا يعرف طريقه إلى تشكيل واقعه ونظرته للدنيا ومناهجه في التفكير ..

وبسبب من سيادة هذه النزعة « الدنيوية ـ العلمانية » ، لم تعتمد مناهج الفكر الوضعي هذه سوى «الدنيا ـ العالم ـ المحسوس» مصدراً وحيداً للمعرفة الحقيقية والعلم الصحيح ، كما وقفت في أدوات المعرفة عند الحواس دون سواها ، ووضعت فيما يشبه الإطلاق والتعميم ، بأن ما سوى المادة والمحسوس ، وما سوى الحواس ـ والعقل قوة من قواها ـ لا يمكن أن يثمر معرفة صادقة ولا علماً يقينياً ، وأقصى ما يبلغه هو إنتاج «الخيال» !

والميتافيزيقا» التي إن أشبعت «الوجدان» فإنها لا ترقى إلى ما تطمئن إليه « العقول »!.

ولذلك المنطلق والموقف في المذهبية الغربية كان انفراد « المنهج التجريبي » لديها كالمنهج الوحيد القادر والصالح لأن يثمر المعارف اليقينية التي تستحق احترام المفكرين والعلماء . . فلأن أصحاب هذه النزعة قد اختزلوا عالم الإنسان إلى « عالم الشهادة » كان اختزالهم مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادية دون غيرها ، ومن ثم اختزالهم أدوات المعرفة في الحواس . . تلك هي النزعة السائدة والمؤثرة في مناهج الفكر الغربي . . النزعة الوضعية لأصحاب المنهج التجريبي . . .

أما المذهبية الإسلامية ، ذات السيادة والتأثير في مناهج الفكر بالحضارة الإسلامية ، فإن لها في هذه القضية موقفاً آخر مغايراً .

فالإنسان في المنظور الإسلامي ليس دنيوياً فقط ، لأنه مخلوق لله الواحد ، سبحانه وتعالى ، وهو في هذه الدنيا ليس موكولاً إلى واقعة المحسوس وإلى حواسه وحدهما ، لأنه فيها خليفة عن الله ، سبحانه ، مكلف بإعمارها وفق بنود عهد وعقد الاستخلاف ، وهذه الأمانة التي حملها هي الابتلاء الذي سيحاسب عليه ، بعد البعث في يوم الدين .

إذاً ففي المنظور الإسلامي ، ليست هذه الدنيا وليس عالم

الشهادة هذا هو العالم الوحيد الذي يؤمن بوجوده هذا الإنسان المسلم ، فقبله كان عالم الغيب . . وبعده يأتي عالم المصير . . فليست المادة والمحسوسات هي وحدها مصدر المعرفة ، لأن عالمها ليس هو العالم الوحيد في هذا الكون وهذا الوجود . .

ولأن الإنسان هو واحد من مخلوقات الله ، التي تقل عن هذا وحصر هذا الإنسان . وبسبب من مكانته الخاصة المتميزة ، والمتميزة بين سائر المخلوقات ، كانت رعاية الله سبحانه وتعالى لهذا الإنسان ، وهي التي تتخذ العديد من الصور ، وتسلك الكثير من الطرق والأساليب . . ولما كان مصدر هذه الرعاية (الله سبحانه وتعالى) ، ليس مادة ، فلقد جعل لهذه الرعاية ، ما تتضمن من فكر وتوجيه وعلم وتعليم ، مصادر ووسائل غير تلك المادة المحسوسة التي تدركها حواس الإنسان . . . وهنا يأتي دور الرسالات السماوية في مصادر المعرفة لدى المؤمنين بهذه الرسالات . . فالوحي الإلهي ، عبر الرسالات والرسل ، هو مصدر- غير مادي للمعرفة والعلم والفكر والتوجيه ، فعالم الشهادة هو أحد عوالم هذا الكون ، وليس العالم الوحيد فيه . . والحواس التي يدرك بها الإنسان معارف عالم الشهادة ، هي حواس إنسان مخلوق ، فهي إذن محدودة القدرات والآفاق ، إذا ما قيست بالقدرة الخالقة والعلم الكلي والمحيط لمن خلق هذا الإنسان ورعاه . . فإذا استقلت

(١) انظر كتابنا (العزة الحميدة في الإسلام) الطبعة الرابعة دار الرشاد القاهرة سنة ١٩٩٨م ، وكتابنا (الحديد في الخط العربي قلم النسخ) الطبعة دار الوفاء القاهرة سنة ١٩٩٧م .

هذه القدرات الإنسانية بإدراك أمر فإنها لا تستقل بإدراك أمور . ولذلك فلقد منّ الله ، سبحانه وتعالى ، على هذا الإنسان ، كمظهر من مظاهر رعايته له ، وبسبب من مكانته الخاصة بين المخلوقات ، إذ هو الذي نفخ الله في طينته من روحه ، وحمل دونها أمانة الاختيار والمسئولية والتكليف ، منّ الله على هذا الإنسان بأن يسر له مصادر للمعرفة ، وسبلاً لتحصيلها تتيح له علم ما لا تُعلّمه إياه ظواهر المادة في عالم الشهادة المحسوس . . .

إن الله لم يكله ، في المعرفة ، إلى حواسه وحدها وإلى قدراته بمفردها . . فكانت رسالات السماء مصادر للمعرفة لا تلغي المعارف المحسوسة المشاهدة ، ولا تقلل من شأن أدوات إدراكها ، وإنما تضيف إلى المعرفة الإنسانية معارف يقينية لا تدركها المادة ولا تستقل بإدراكها الحواس ، لأنها معارف عوالم غير مادية ، وأنباء عن مقادير من علم هذه العوالم ، تفضل بها على هذا الإنسان عالم الغيب والشهادة ، وذلك حتى لا يظل هذا الإنسان ، المكون من الروح والجسد ، معزل عن غذاء الروح وحبيساً للمعارف المادية دون سواها . كانت معارف هذه الرسالات السماوية :

● تأكيداً للمعارف العقلية الصادقة يُطمئنّ الإنسان العاقل على صدق ما وصل إليه بعقله الإنساني ، عندما وصل ، ذاتيا إلى تحسين الحسن وتقبيح القبيح . . .

● وتصحيحاً لأحكام وتصورات الحواس ، ومنها العقل الإنساني

، التي لم تصادف الحق والصواب لنسبية قدرات هذه الحواس ومحدودية آفاقها ، .

● وإعانة لهذا الإنسان على معرفة وإدراك المقادير الضرورية لترشيد مسيرته من المعارف والعلوم التي لا يستطيع عقله أن يستقل بإدراكها . .

● ودعوة له كي يغوص فيما لا تدركه حواسه ، لما سكتت هذه الرسالات عن تفصيل خبره من الغيبيات ، ومن الأحكام التعبدية .

فهي إذاً عوالم ومجالات للمعرفة . وهي أيضاً ، سبل متعددة لتحصيل المعارف اليقينية ، يؤمن بها الإنسان المسلم ، بحكم إيمانه الديني ، وليس فقط عالم الشهادة ولا الحواس الإنسانية ، هي مصادر وأدوات المعرفة الحقة ، كما في « الوضعية ـ المادية » عند المفكرين الغربيين ـ . .

إن الإنسان المسلم ، بحكم إيمانه بتعدد عوالم هذا الكون وهذا الوجود . . وبحكم إيمانه بالكثرة والتعددية ، التي لا يستطيع كبشر حصرها في أم المخلوقات وجماعاتها في هذا الوجود ، وبحكم إيمانه بالتكليف والمسئولية التي ترتبت على حمله الأمانة ، كخليفة عن الله ـ الأمر الذي يقتضي حساباً وجزاء ، تنتفي بهما « العبثية » عن هذا الوجود . . . إن هذا الإنسان ، بحكم ذلك الإيمان ، لا يقف بتطلعاته المعرفية عند عالم الشهادة هذا ، وإنما يتطلع أيضاً ، إلى ما

هو الذي منحه الوجود والنظام و لانظام

ب- المنهج التاريخي .

الذي يستدل به الإنسان ، بواسطة الت[illegible] في التصديق بوجوده مرسلا [illegible]

ج- المنهج السمعي

ذلك الذي يكون بوحي الإله[illegible] بتسويه السبل المؤدي إليه[illegible] ومعارفه . فهذا المنهج السمعي [illegible] عن عالم الغيب ، غير المدرك ، و[illegible] بمفرد توعيه . .

وليس أمر هذه المعارف التي يحصل للإنسان بالمنهج السمعي ـ ليس أمرها في الصدق ، [illegible] يكون خال

الذي يبدو مكملا «الشكل المعتاد»

[illegible]

[illegible]

[illegible]

القرآن والسُّنة أو البلاغ واللسان

من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين ﴿

الأكلة على قصعتها

وأخيراً

فإن التماس الإنسان المسلم المعارف العديدة، من المصادر والمبادين المتعددة، بواسطة السُّنَّة النبوية، إنما يفتح للعقل الإنساني الجديد والعديد من الآفاق، وذلك دون أن يحد من قدرات وإمكانات وآفاق هذا العقل أو يقيد من طموحاته.. بل إن هذا النهج الإسلامي، الذي لا يقف - كالنهج الغربي عند المنهج الحسي التجريبي - إنما يقوم - مع تهذيب غرور العقل - بتوجيهه إلى المبادين الحقيقية التي تأهل لأن يبدع فيها، وذلك عندما يعلمه حقيقة عجزه عن الاستقلال بإدراك معارف عالم الغيب. وكأنه - المنهج الإسلامي - يذكر العقل بالحقيقة الخالدة التي تقول: كل ميسر لما خُلق له!

كذلك، فإن هذا المنهج الإسلامي، الذي يجعل البلاغ القرآني، وبيانه النبوي: مصدراً للمعرفة اليقينية في مبادين عديدة - يكون في بعضها: مجرد حافز للعقل على النظر، ومحافظ له من تجاوز الحدود.. ويكون في بعضها: المعين والموازن.. ويكون في أخرى: المصدر الوحيد لمعرفة ما لا قِبَلَ للعقل بالخوض فيه.

إن هذا المنهج الميسر هو الحقق: لتكامل المعرفة الإنسانية، وذلك عندما يحقق للإنسان قدراً من معارف عالم الغيب، إلى جانب زاده وزاد اجتهاداته من معارف عالم الشهادة.. وهذا التكامل هو الذي يحقق «التوازن المعرفي» للإنسان، على النحو الذي ييسر له

«التوازن السلوكي» . . وبهما - التوازن المعرفي ، والتوازن السلوكي - تتحقق «المعاني» و«الحِكَم» و«العلل الغائية» من وراء خلق الإنسان ، واستخلافه عن الله ، سبحانه وتعالى ، في عمارة هذا العالم . . فتنتفي - أو تقل - من حياته منغصات وأزمات «العبثية» و«اللا أدرية» و«الطرق المغلقة» ، التي تأخذ بخناقه في ظل الحضارات المادية ، والتي قادته ودفعته - خارج منهج الإسلام ووسطيته - إلى مستنقعات : «الشهوة الحيوانية» و«اللذة الآنية» و«الأنانية المتعالية» و«النظرة العدمية» لما وراء عالم المحسوسات . . فلم ينجح التقدم المادي الذي أحرزه في إنقاذه من القلق والقنوط والإحباط . . حتى لتصدق عليه الآية القرآنية التي تتوعد فتقول : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ﴾[1] . . وحتى لكأنهم دهريو العصر ، القائلون : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾[2] !

هذا هو منهج الإسلام ، العاصم للإنسان من هذا المصير . . به رأينا السُّنَّة النبوية مصدرًا للمعرفة ، تنهض بدورها إلى جانب البلاغ القرآني في إثراء معارف الإنسان المسلم ، وإغناء المسرح الفكري لحضارة الإسلام .

---

(١) «المرسلات : ٤٦» .

(٢) «الجاثية : ٢٤» .

الفهـرس

تمهيد	٣
بين منهجين	٥
القرآن والسُّنَّة : أو : البلاغ . . والبيان	١٥
نماذج شـاهدة	٢٣
وأخيرًا	٣٧

إلى القارئ العزيز

في هذه السلسلة الجديدة

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تضع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا
- ا . فهمي هويدي
- د . يوسف القرضاوي
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام
- د . عبدالوهاب المسيري
- د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر